أولو الألباب.. والبناء.. وسورة الرعد

«١»

آيات سورة الرعد التي أسعدنا بدء اصطحابها فيما سبق، والمبدوءة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩] تؤذن بصورة واضحة ـ كما سلفت الإشارة ـ إلى أن من جرى وصفهم في هذه السورة بأنهم أولو الألباب ـ العقول الراجحة ـ من عيون ما تزدان به خلائقهم: أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل؛ وما من ريب في أن «صلة الأرحام» تأتي في مقدمة ما يعنيه قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

غير أن الذي يوحي بمزيد من التأمل: أن الصفة المشار إليها، جاءت ـ كما سبق ـ ضمن مجموعة من الصفات السنيَّة المباركة التي يتصف بها أولئك المؤمنون، ولها مالها من السلطان على سلوكهم في علاقتهم بالعباد ورب العباد!

وجميل أن نتنبه إلى أن ذكر تلكم الصفات جاء بعد الذي صدرت به الآيات التي اشتملت عليها ـ كما رأينا ـ من قوله جل وعلا: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾.

فالذين يتذكرون هذه الحقيقة حقيقة أنهم يعلمون أنه لا يستوي من يعلم أنما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه الحق ومن هو أعمى والغ في البعد عن الحق: هم أهل العقول الراجحة.

وبسبب من هذا التذكر الذي يفضي إلى العلم بهذه الحقيقة، جاء إسناد صفة أولي الألباب إلى هؤلاء العقلاء بصيغة الحصر وذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾.

وعلى سنن الأسلوب القرآني المعجز: جاء بعد ذلك ذكر تلك الطاقة من صفاتهم فقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾.

إن مجتمع العقيدة التي تحرر الإنسان من العبودية لغير الله، وتحرر العقل من إسار الجاهلية والتقليد الأعمى، ذاك الذي كان من مهمة النبي ﷺ إرساءُ قواعده: عماد وجوده الحقيقي المثمر: أولئك الذين يحملون تلك العقيدة بصدق، وينطلقون على هديها، عملاً بحقها في الحياة، فيملؤون بكفاياتهم، وأمانتهم على نور من الله عز وجل وتقواه، كل ميادين العمل والبناء. وتراهم - وهم في ذلك كله - على بصيرة من أمرهم، ويقظة عقلية علمية في تصرفاتهم تضمنان - بعون الله - جودة ما ينجزون مما يجب إنجازه، والبعد عن مزالق الانحراف.

ولذلك قررت الآية الآنفة الذكر أنه لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق الذي لا مرية فيه، ولا لبس ولا اختلاف؛ بل هو كله حق يصدِّق بعضه بعضاً، لا يضادُّ شيء منه شيئاً آخر﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢] .

فأخباره كلها حق بعيد عن شائبة الباطل، وأوامره ونواهيه وتكاليفه كافةً عدل لا عول فيه، كما جاء في سورة الأنعام: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الأخبار. وعدلاً في الطلب؛ فكل ما أخبر به فحقٌّ لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر فهو العدل لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل.

أجل لا يستوي من استشرف قلبه إلى الهدى، وعقله إلى معرفة الصراط السوي، فتحقَّق صدقَ ما جئتَ به يا محمد.. ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولو فهمه ووعاه، ما انقاد له، ولا صدَّقه ولا اتبعه، بل أصرَّ على عناده وكفره. وأين عاقبة هذا من عاقبة ذاك؟! وصدق ربنا جل شأنه مخبراً عن عدله المطلق في ذلك فيقول: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر:٢٠]

وليس من نافلة القول هنا: أن نزيد الأمر وضوحاً بالتذكير مرة أخرى بآية سورة الرعد مفتاح المسألة المطروحة في المعلم القرآني وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾....الآية. حيث نرى من عطائها نفي التسوية بين الاثنين من طريق هذا الاستفهام التقريري الإنكاري؛ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء!!

إن رسول الله ﷺ الذي كان يضيء للإنسانية طريقها بهذا الدين بلاغاً وبياناً، لم يكن همه أن يجمع أكداساً من البشر، لا تعي رسالة الإنسان في الحياة، ولكن همُّه - صلوات الله وسلامه عليه - أن يزيل الغشاوة عن الأعين، وتلك الحجب الجاهلية الكثيفة عن العقول والقلوب، ويقدم للدنيا كلها إنسان العقيدة الخالصة، الذي يقوى على بناء الحضارة المثلى لبني الإنسان؛ ولذلك - والله أعلم - ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي إنما يتعظ، ويعتبر، ويعقل سوء ما عليه الناس من أمور الجاهلية، وما يجب أن يكونوا عليه حيث تشرق شمس الإيمان، وتتحرك العقول، وتنطلق الكفايات على طريق الحق.. إنما يفعل هذا أولو العقول السليمة الصحيحة على هدي ما جاء به من أنزل عليه الحق من ربه محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وذلكم هو التذكُّر الحقيقي الذي يجمع أطراف الفكر السليم والعمل السليم.

لقد كانت هذه الآية مؤشراً واضحاً على طريق التغيير الذي أراده صاحب الرسالة الخاتمة صلى الله وسلم وبارك عليه، وهو يمزق بالهداية المستنيرة ظلام القرون في حياة الفرد والأسرة والمجتمع في أصقاع الأرض.

فالقادرون - بتوفيق الله - على أن يكونوا من جند تلك المهمة الكبرى: هم أولئك الذين يضعون أقدامهم على الطريق الصاعدة، بقلوب متفتحة إلى الخير، وعقول تتجاوز التبعية البلهاء والتقليد الأعمى - ولو كان المتبَّعون لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون - ولديهم من الشجاعة الذاتية ما يجعلهم - وهم ينصرون الحق ويحرسونه ابتغاء مرضاة الله - أن يدوروا مع هذا الحق حيث دار، مهما كلفهم ذلك من ثمن، والله معهم ولن يَترَهم أعمالهم.

أولو الألباب.. والبناء
وسورة الرعد

«٢»

حين نصحب مع المعلم القرآني أولئك البررة الذين أشار إليهم على سبيل الحصر بـ «إنما» قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ نعلم يقيناً أن الذين لا يتذكرون ليسوا من أولي الألباب؛ لأنهم لو كانوا عقلاء ـ كما ينبغي ـ لاستشرفوا إلى الحقيقة وانشرحت صدورهم لما جاء به محمد ﷺ من الهدى والبينات من ربه، حيث كان يقيم لهم مالا قِبَل لهم برده من الأدلة الناصعة على ما يقول.

ويقتضينا الحرص على الاستنارة بهدي المعلم القرآني ـ وقد ذكرت جملة مباركة من صفات أولئك الذين سما بهم التذكُّر لأن يكونوا أولي الألباب ـ: أن نتابع الرحلة العجلى التي بدأناها مع تلك الصفات التي ازدان بها سلوكهم، وهم يؤدون أمانة الريادة على طرائق الخير، ويمتثلون أمر الله ورسوله بأن يكونوا ساعد التحوُّل في حياة الفرد والجماعة إلى ما هو الأفضل والأقوم سبيلاً.

يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ إنهم ـ وهم يحملون عبء المهمة الكبرى في تحويل طريق الأمة من الجاهلية إلى الإسلام في الميادين كلها عقيدةً، وتشريعاً، وسلوكاً وأخلاقاً، ويعملون على أن يرقَوا بها إلى مصافِّ القيادة والكلمة الذاتية المسموعة.. إنهم ـ وهم يفعلون ذلك ـ: لا يزيفُّون ولا يخونون، بل يوفون بعهد الله، فيطيعون ويبذلون، ويلتزمون، ولا ينقضون الميثاق.

أجل لا ينقضون الميثاق الذي أعطوه من أنفسهم لله ولرسوله بأن يؤدوا حق الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وحق «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» لا ينحسر عن جانب من جوانب الحياة؛ لأن هذه الكلمة الطيبة بدلالتها وأبعادها: منهج حياة يشرق في كل ما هو من صلاح الدين والدنيا والآخرة.

هكذا يتسم هؤلاء المؤمنون الصادقون ـ بما تفضل الله به عليهم من استنارة العقول وصفاء القلوب ـ بالوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق؛ فهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا حدَّث أحدهم كَذَب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان؛ فضلاً عن خيانتهم للكلمة التي تنطق بها ألسنتهم، وتكفر بها قلوبهم، ويجفوها سلوكهم ـ والعياذ بالله ـ؛ فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في واد وهم في واد. وبهذا كانوا بنفاقهم أبعد ما يكونون عن الانتماء إلى أولي الألباب.

بل إنهم عبء على الأمة، يعوقون مسيرتها على دروب الهداية والتمكين، ويشكلون بؤرة من بؤر الضعف الذي ما لها بدٌّ من معالجته الحازمة في حياتها.

ثم إن المؤمنين الصادقين الذين هم بحقٍ أولو الألباب: يسهمون في أن يكون البناء الاجتماعي سليماً معافىً قادراً على الاستمرار المنشود؛ لأن الجماعة في هذا المجتمع المبتغى يسودها التعاون على البر والتقوى والتكافل والتضامن؛ فأبناؤها يصلون ما أمر الله به أن يوصل، من صلة الأرحام، والعمل على إنقاذ البائسين والمحاويج، وفعل المعروف بشتى أبعاده، مهما كلف ذلك من ثمن ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

إنهم يفعلون ذلك كله عن طيب نفس، وانشراح صدر امتثالاً لأمر الله تعالى راجين منه القبول.

وتراهم يخشون ربهم ظاهراً وباطناً، سراً وعلانيةً، فيما يأخذون وفيما يذرون من الأقوال والأفعال وسائر التصرفات، ويراقبونه ـ جل وعلا ـ في ذلك مراقبة من يعلم أنه مطَّلع على ما يسرُّ وما يعلن، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي الوقت نفسه: لا يلهيهم الأمل، ولا تغرُّهم الحياة ومتاعها الزائل، بل إن الآخرة أبداً منهم في حسبان، ويخافون سوء الحساب فيها، وأن يكونوا لا قدَّر الله من أهل السعير!!

ولهذا كان أمرهم على السداد في أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، وجميع أحوالهم؛ ما كان من ذلك في خاصة أنفسهم، وما كان متعدياً إلى غيرهم؛

وذلك ما ختمت به الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾.

وبعد: فتلكم هي الحوافز الذاتية غير المتكلفة التي تنشئها العقيدة، فتجعل من أصحابها ـ بما يتصفون به من خلال الخير ومقومات البناء المشرق بالعطاء ـ: رواداً أقوياء أمناء، ينطلقون في ساحات العلم والعمل، والتوجه الحضاري السليم: بناة قادرين ـ وقد جمعوا إلى المنهجية الإخلاص والتفاني ـ على تحويل مسار الأمة، كيما تكون على الجادة أبداً، توظف إمكاناتها، وطاقاتها البشرية والعلمية والمادية وغيرها على الطريق المنتجة المرضيَّة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام في عمارة الأرض والبناء الحضاري، المشرق بنور الإسلام، الطريق التي لا يغني غناءها الوافد المزخرف، وتنتهي ـ بفضل الله ـ بعد التمكين في الدنيا بجنة عرضها السماوات والأرض يوم الدين.

* * *

التناسب بين المؤمنين.. وبين رسالة البناء الحضاري وسورة الرعد

«٣»

النظرة المنهجية الواعية لأبعاد المهمة التي انتدب لها المؤمن من تحقيق كلمة الله في الأرض؛ علماً وعملاً وبناءً متكاملاً للإنسان والحياة على قاعدة من سلامة المقصد جدّ سليمة وعظيمة، بحيث لا يتقاصر هذا البناء عن جانب من الجوانب تقتضيه علاقة الإنسان بالكون والحياة، وأن تكون عمارة الأرض في ظل المد الحضاري على كلمة سواء في أن تكون مخافة الله واليوم الآخر بحسبان!

النظرة المنهجية الواعية من هذا الطراز.. تكشف أكثر وأكثر عن التناسب بين الصفات التي تضفيها معالم الكتاب العزيز على المؤمنين، وبين رسالتهم في الحياة.

لذا كان المجتمع القدوة الذي بناه النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام بأيدي البررة من أولئك المؤمنين الذين جاء ذكرهم في التوراة والإنجيل، بقيادته صلوات الله وسلامه عليه: صورة حية لضرورة التناسب بين الغاية المنشودة، وطبيعة الإعداد الذي يجب أن يتحقق على طريق الهدف الكبير الذي ينشده الفرد والجماعة طاعة لله عز وجل.

وددت التذكير بهذه الحقيقة وأنا بسبيل أن يكون الحديث موصولاً بما وقفنا عليه المعلم القرآني في كلمات سبقت من بعض صفات أهل الإيمان الصادقين عبر آيات من سورة «الرعد» كان منها قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

هكذا وصفهم جل شأنه بالصبر عن المحارم والمآثم والبعد عن كل ما يسخط الله، حيث فطموا أنفسهم عن ذلك لله الذي يعلم السر وأخفى، ابتغاء مرضاته، والظفر بجزيل ثوابه. كما وصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم أقاموا الصلاة بحدودها كاملة، وخشوعها على الوجه الشرعي المطلوب، وأنفقوا كذلك مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ فتعدَّى النفع ذواتهم إلى المجتمع، ومن خلال ذلك، تراهم وقد أسهموا في رفع سوية الإنسان طاعة لله تعالى، وفي تكامل المجتمع الاقتصادي والاجتماعي على هذا السنن نفسه، وكانوا نعم القدوة في ذلك على صعيد التربية والإعداد!!

وبعد ذلك: ها هم أولاء لا يفتؤون يأخذون أنفسهم بالسلوك الأقوم والخلق الكريم في تعاملهم مع الآخرين؛ فيدرؤون بالحسنة السيئةَ، حيث يقابلون الأذى من إخوانهم، بالصبر الجميل والصفح عن الزلات.

وكم لذلك من آثار ليس أقلَّها تمتين الأواصر، وإحكام الترابط بين الإخوة في مجتمع العقيدة، وإعطاء المثل الطيب يصنعه سلوك الفرد والجماعة في هذا المجتمع.

ومما يؤكد ذلك ويزيد هذه الحقيقة وضوحاً ونصاعة قول الله تبارك وتعالى في سورة «فصلت»: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

وإذا كان الخير يجلب الخير: فلا بدع أن تذكرنا هذه الكلمات الهاديات قوله تعالى في سورة الأعراف خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف :١٩٩] وموقفاً لعمر رضي الله عنه لم يبارح هديَها.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ـ وكان القراء أصحابَ مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر؛ فلما دخل قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به؛ فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافاً عند كتاب الله عز وجل. قال ابن كثير: انفرد بإخراجه البخاري.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر: مرَّ على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهيٌّ عنه؛ فقالوا: نحن أعلم بهذا منك؛ إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا: فلا بأس به.

فسكت سالم وقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

هذا: والله الذي لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى من المؤمنين: أخبر عن أولئك العاملين الذين توافرت لهم ـ بتوفيقه تعالى ـ تلك الصفات مجتمعة، بأن لهم عقبى الدار، وما أعظمها بشارةً؛ فقد كشفت الكلمة الهادية المنيرة عن عقبى الدار هذه بقوله سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

هذا في الآخرة دار القرار، ناهيك عما يحققون لأنفسهم ولأمتهم من الخير في الدنيا، حين تراهم وقد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا حراس الحقيقة، الذائدين عن حمى الإسلام، مهما كلّفهم ذلك من ثمن؛ لأن المبتغى أولاً وآخراً أن لا يكون بالله سخط عليهم، وأن يكونوا في زمرة أهل الرضى الذين يحبهم ويحبونه، وهم ـ في الأحوال كافة ـ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

والحق أن الأمة ـ كما تتطلَّع إلى وجود العناصر المؤهلة بكفاياتها العلمية والعملية لسدِّ الفراغ ـ بإخلاص ـ في ميادين الحركة وبناء الذات: فهي تحتاج ـ على خط سواء ـ أن يوسع لخلائق المؤمنين ـ التي رأينا صفحة مشرقة من تكاملها في الكتاب

الكريم ـ عند أصحاب تلك الكفايات، كيما تغنيَ حياتهم الحافلة بالحركة والإنجاز، بالصدق وخلوص النية، وبواعث الاستمرار مهما تفاقمت عقبات الطريق، وتنمي الحوافز التي تستعصي على المغريات والمعوقات في حالتي الرغب والرهب!

وحين يتوافر للأمة هذا التكامل العلمي الأخلاقي ـ على هدي العقيدة ـ في جيل البناء: يكون لأهل الصلاح والإصلاح، وهم يطمعون أن ترتفعَ قواعد البناء السليم من جديد؛ أن يتفاءلوا ـ وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن ـ بأن الخطوات المتقدمة بدأت تثبت وجودها على طريق يمكِّن الأمة بعون الله أن تظفر بذاتيتها على الوجه الذي ينبغي، وأن تملي كلمتها ـ وهي على استقلال فيما تمليه ـ أن تملي كلمتها على التاريخ من جديد. والحياةُ الطيبة في الدنيا وعقبى الدار للعاملين المخلصين.

* * *

تنمية الحوافز.. والبناء وأولو الألباب وسورة الرعد

«٤»

الحوافز الذاتية التي نلمح إليها بين الحين والآخر: مرتبطة أيَّما ارتباط بالعقيدة، كما تدل على ذلك معالم القرآن الكريم. وإذا كان بناؤها في النفوس ضرورة يمليها الواجب والمصلحة الشرعية، بحيث تنمو وتتعاظم مع نمو التبعات وتعاظمها: فإن من الضرورة بمكان: أن يلحظ ذلك عند كل خطوة في عالم المناهج أياً كانت الساحة والموضوع، وفي عالم التنفيذ وترجمة فقرات المنهاج إلى حركة وعمل.

وفي الآيات التي سعدنا بصحبتها من سورة الرعد، والتي حملت العديد من صفات المؤمنين الذين خصهم القرآن بسمة أولي الألباب ـ كما سبق من قبل ـ وهم أولئك الصفوة الذين علموا أن ما أُنزل إلى رسول الله ﷺ من ربه الحقُ، وكانوا أولي الألباب بهذا التذكر الذي هو بريد الخير والعطاء. ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

في تلك الآيات المباركات تُشرقُ عليك تنميةُ الحافز الذاتي من طريق إحكام الصلة بين المؤمن وبين مولاه عز وجل، والتذكير بالآخرة وما أعد الله لأحبائه المؤمنين؛ فترى مثلاً: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ ومن ذلك ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

ويبلغ الأمر ذروته حين يبشر الله هؤلاء المؤمنين الذين تَحكُم أعمالَهم وسلوكَهم هذه الخلائقُ المباركةُ فيقولُ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وما من ريب في أن هذه البشارة ـ وأمثالها كثير في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ـ تعمل عملها في المزيد من تلك التنمية التي يريدها المصلحون، وأعني بها تنمية الحوافز المشار إليها والتي تنبع من أعماق النفس بدافع العقيدة، وتكون لها انعكاساتُها على العمل من ناحيتي الكم والكيف.

وعلى هذا: فكلما ازدادت العنايةُ بزيادة الإيمان، وتأصيل معاني العقيدة الصحيحة في النفوس: كان ذلك أعونَ على أن ينقاد جيل البناء بالمنهج الرباني ترغيباً وترهيباً، كما تبرزه معالم القرآن الكريم.

ومهما يكن من أمر: فإن ذلك لا يعني إهمال الحقوق، والحيلولةَ دون العاملين، ودون أن يكون لهم من أمور الدنيا ما يحفزهم إلى تجويد العمل والاستمرار في رحلة البناء!!

ولكن تظل العقيدة هي النبع الأصيل الذي يفيض على المؤمنين بالخير، ويدفعهم إلى ساحات البذل والعطاء عن رضىً وطمأنينة، طمعاً بفضل الله عز وجل وابتغاءً لمرضاته.

وأين من ذلك من لا همَّ لهم إلا العبث والاستهانة بالوقت، والغفلة عن واقع الأمة!

وماذا لو حاولنا أن نستذكر أن الذين صنعوا تاريخنا بدمائهم، وأموالهم، وما أثمرت عقولهم وهممهم، ما كان لهم أن يقدِّموا ما قدّموا، ويكونَ من وراء ذلك على صعيد المجتمع والأمة ما يكون، لولا تلك الحوافز الذاتيةُ التي صنعتها العقيدة فاستطاع أصحابها أن يصنعوا التاريخ.

ألا وإن ثقل المسؤوليات اليوم وما تقتضيه المراحل المقبلة، على صعيد البناء ومواجهة التحديات: كل ذلك يوجب أن تُستكمل عناصر البناء من جميع أطرافها، ومنها التربيةُ على مراقبة الله وتذكُّرِ اليوم الآخر، وتنميةِ الحوافز التي هي من بعض عطاء الإيمان.

وكم هي كثيرة وفيرة ألوان هذا العطاء. في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

أولو الألباب.. والنقيض من صفاتهم عند الهدامين وسورة الرعد

«٥»

لم تدع الآيات الكريمة في سورة الرعد ـ كما رأينا فيما سبق من القول ـ وهي تمدُّ الأمة على طريق البناء، بالكشف عن عددٍ من صفات المؤمنين الصادقين، وما أعد الله لهم في الآخرة من العقبى الكريمة التي تتعداهم إلى من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.. لم تدع هذه الآيات أن تعرج في أعقاب ذلك، على صفات من هم على النقيض من أولئك، حيث حقت عليهم الضلالة بعنادهم وإصرارهم على الباطل، وكانت لهم اللعنة وسوء الدار في الآخرة والعياذ بالله؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى في الآيتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ هؤلاء هم الأشقياء، اتصفوا بخلاف ما اتصف به السعداء، فكانت لهم العاقبة السيئة والمصير المناسب لما هم عليه في الدنيا، يوم كانوا يواجهون القرآن بقلوب مريضة وعقول مغلقة، فزادهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون.

فالمؤمنون يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، وهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. والمؤمنون يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، والمؤمنون يديمون صلتهم بالله عز وجل، بالعبادة الخالصة المنيرة، بدنيةً كانت أو ماليَّة، فينفعون أنفسهم وينفعون المجتمع، ويسلكون المسلك الذي تحكمه أخلاق الإسلام.

أما هؤلاء: فهمُّهم الفساد والإفساد في الأرض. إنها حلقات هدم ثلاث: فهم في أنفسهم: ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويجاهرونه بالعداوة، ومع البناء الاجتماعي حيث وجوب العناية بالخلية الأولى في الإنفاق على من يجب الإنفاق عليهم وفي صلة الأرحام والإحسان إليهم.. تراهم يفعلون العكس فيُقْدِمون على ما يحدث التخلخلَ ويُضعِفُ أواصر الودِّ، وذلك بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل.

وعلى الصعيد العام: تراهم ينصرفون عن أن يكونوا عنصر صلاح وإصلاح، قياماً بالواجب، وإسهاماً في بناء القوة الذاتية للأمة، بدءاً من المجتمع الذي يضمهم ويعيشون في كنفه. وبدلاً من ذلك كله: يسلكون سبيل الفساد في الأرضِ.. الفسادِ الذي قد يتعدى حدود الفرد والجماعة إلى الأمة والعياذ بالله من الهدم والهدامين!

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال: «**إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا**» وكأن أبا العالية يشير إلى ما روى الشيخان من قول النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا أحدث كذب، وإذ وعد أخلف، وإذا أوئتمن خان**» .

لقد جاءت الآيات على بعضٍ من صفات المؤمنين البررة وما فازوا به من رضوان الله: كي يُستمسكَ بتلك الصفات وتكونَ ضياءً على طريق الأمة في بناء الفرد وإحاطة المجتمع بعناصر السلامة والنماء.

كما جاءت على صفات أولئك الأشقياء الفجرة، صفات الهدم لا البناء، وما أعقبت لأصحابها من سخط الله وسوء المصير: كيما تُجتنَب، ويَتَنَبَّه المؤتمنون على بناء الأجيال إلى خطرها على الفرد والأسرة والمجتمع.

وإذا كان الشطر الأول من الآيات ينمي حوافز العطاء عند المؤمن، ويكشف عمَّا لها من قيمة كبرى في معايير البناء في أي ثغر أقام الله عليه المؤمن ثقافياً كان أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو غير ذلك: فإن الشطر الثاني منها يحول ـ بعون الله ـ دون بواعث الأذى، أن تمد أعناقها، ودون صفات الهدم والعبث، أن يكون لها طريق إلى سلوك الذين تأتمنهم الأمة على مواجهة الصعاب، وتحمّلهم أمانة الحركة الواعية التي توجِّه المسار إلى ما هو الأفضل والأقوم، وتنمي فاعلية الخير والعطاء.

* * *